نادر مصاروة. **شعر العميان: الواقع، الخيال، المعاني، والصور الفنية حتى القرن الثاني عشر الميلادي.**

بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٨. ٥٤٤ صفحة.

من المعلوم أن الشعر العربي كونه تراثا هاما يمثل الثقافة العربية والإسلامية لا يزال يحتاج إلى دراسات وأبحاث، لان المسألة ليست مجرد تقديم دراسات إحصائية أو تقديم تركيبات لغوية وبلاغية أو نصية وموضوعية، وإنما تقديم رؤى جديدة من المادة الخام الخاصة بالتراث الأدبي العربي.

يقدم الدكتور نادر مصاروة للقارئ كتابا متميزا ومختلفا عن المطبوعات التي صدرت حتى الآن في العالم العربي، حول قضايا ومسائل مختلفة منوطة بالتراث العربي القديم، ونخص بالذكر الصورة الشعرية لدى الشعراء العميان من جوانب مختلفة، الواقع والخيال، الصورة الفنية والمعاني، منذ بداية الإسلام وحتى القرن الثاني عشر ميلاديا.

نحن لا ننكر الجهود التي قام بها بعض الباحثين العرب وغير العرب، في هذا المضمار (عبد الله الفيفي، محمد أحمد الدوخان، يوسف سدان)، لكن هذا الكتاب يقدم للقارئ والباحث قضايا شاملة لم تبحث من قبل ترتبط بالصورة الشعرية لدى الشعراء المذكورين أعلاه.

لا شك أنّ تهافت الآراء والدراسات حول الشعر القديم، جعل هذا الفن ثمرة من ثمار الثقافة العربية، لأن الوعي الفكري للإنسان، والعرف الاجتماعي والتجديد اللغوي هي بمثابة الآلية الأكثر قدرة على إنتاج الشعر، بل الأجدر بنسيج التخيل الإبداعي، وتشكيل الصورة الشعرية والفنية.

من الجدير بالذكر أن الشعر لا يقدم الأحداث والقيم تقديماً آليا، بل يقدمها بواسطة الخيال، لأن الشعر أداته الخيال، حيث يشكل الشاعر بواسطته الواقع كما ارتآه وتصوره، ومن

هنا نستطيع أن نقول إن الشعر يقدم لنا صورًا ترتبط بعالم الأشياء والأفعال والقيم، ولكن هذه الصور ليست هي الواقع وإنما هي واقع من نوع جديد يبتدعه الشاعر، وهي مع ذلك لا تقطع صلتنا بالواقع بل تردنا إلى عالم الواقع وتجعلنا نطل عليه من خلالها، فتكون الصورة بذلك تركيبا ابتكاريا يشكله الخيال، فكيف يكون هذا الأمر إذا قرأنا أشعارا لشعراء لم يروا نور الحياة؟

إن الدراسة التي قدمها الدكتور نادر مصاروة للقارئ من جهة وللمكتبة العربية من جهة أخرى، تعتبر نهجا ومسعى جادا في دراسة الصورة الفنية لدى الشعراء العميان، لأن المؤلف لم يقدم عملا تناول فيه النواحي الجمالية في النصوص الشعرية المختلفة فحسب، وإنما هو عمل سعى مؤلفه لكشف النسيج الشعري من خلال الحركة اللغوية والخطاب الشعري لدى الشعراء.

لقد احتوت هذه الدراسة الشاملة على ستة فصول، عالج فيها الكاتب قضايا أساسية ترتبط بالصورة الفنية والمعنى، الواقع والخيال لدى نخبة من الشعراء العرب القدماء.

ما يجذب نظر القارئ المقدمة الغنية التي تصدرت الكتاب، فلم يكتف المؤلف بسرد التعريفات المختلفة للصورة الشعرية في ميزان النقد الأدبي القديم والحديث (الجرجاني، جابر عصفور) بل تناول الدلالات الإيحائية المركبة لها من حيث أنها إحدى الوسائل الهامة التي تشكّل قلب العمل الأدبي وتصوغ مضمونه، وبالأحرى فإن الصورة الأدبية أو الصياغة عملية لتشكيل المضمون وإبراز عناصره وتنمية مقوماته، وهذا الأمر ارتكزت عليه بعض الدراسات النقدية الأدبية الحديثة نخص بالذكر ما قدمته المدرسة الواقعية الاشتراكية، أو الماركسية من آراء في هذا المضمار (محمود أمين العالم، وعبد العظيم أنيس، في الثقافة المصرية- ١٩٥٤). لا نغفل بأنّ هذا الجانب يختلف عن آراء طه حسين الذي أشار بأن اللغة هي صورة الأدب وأن المعاني مادته (الجمهورية ١٩٥٤)

العنصر الآخر الذي لا يقل أهمية عن الصورة فهو الخيال الذي يعتبر جوهر وأساس العمل الشعري، ومن المعروف أن مصطلح الخيال يتخذ في مقابل كلمة imagination ليشار به إلى

الملكة الذهنية القادرة على تصور الأشياء مع غيابها عن متناول الحس وذلك بإعادة تشكيلها في كيان جديد متميز منسجم يجمع المتنافر والمتباعد ويذيب الحواجز. فقلما نجد ناقدا يتناول قصيدة معينة بالدراسة والتحليل دون الوقوف على الخيال ومادته في النص الأدبي. وقد أشار مصاروة إلى مسألة الخيال لدى الشعراء العميان من حيث اعتمادهم على حاسة اللمس والسمع وحواس أخرى دون البصر كأداة مساعدة لإبراز الصورة الشعرية إلى النور.

لا نغفل أيضا الصورة الحسية في الشعر لدى الشعراء العميان، الذين اعتمدوا على حواس أخرى كما أشرت سابقا لصياغة الصورة الشعرية واللونية، بل ومعرفة وظيفتها ومدى تفاعلها مع المادة الأدبية.

بالإضافة إلى الزخارف المجازية والتراسل الحسي، وإن وجدنا في بعض الأحيان غموضا نسبيا في المعاني المستهدفة لدى هؤلاء الشعراء.

من الفصول التي تجذب نظر القارئ في هذا الكتاب المتميّز موضوع التقليد والتجديد في شعر العميان، لأن هذه المسالة مختلفة عن الشعراء المبصرين، ولكونهم يعتمدون بشكل ملحوظ على النتاجات الأدبية السابقة، لهذا الغرض تناول مصاروة شاعرين بدراسته بشار بن برد والمعري، لكن رغم عنصر التقليد وهو ليس جديدا في حركة الشعر القديم والحديث، فثمّة دلالات وإبداعات شعرية خلاّقة، صورة ومادة، بل خرج الشاعران عن المألوف في كثير من الأحيان، ويشير المؤلف أن فقدان حاسة النظر كان سببا أساسيا في ذلك، والأمثلة المختلفة والعديدة التي ساقها المؤلف في سياق دراسته تشير إلى مدى الدقة العلمية في الكتاب. فضلا عن الصورة البصرية لدى الشاعرين.

نضيف أيضا أن المؤلف خصص فصلا شاملا لبحث مسألة "المعاني" لدى الشاعرين وشعراء آخرين معتمدا على الدراسات القيمة لصديقنا وأستاذنا الباحث البروفسور يوسف سدان، أستاذ كرسي الأدب العربي في جامعة تل – أبيب.

ربما تختلف الصورة باختلاف الثقافة والحالة الاجتماعية والنفسية، فالصورة عند المبصر تختلف عنها عند الضرير، وقد صور كل من أبي نواس وبشار (النقع) والجيش والسيوف، يقول

عبد الله الفيفي في دراسته عن شعر (العميان) مقارناً بين أبي نواس وبشار بن برد، الأول مبصر والثاني أعمى: "وشتان بين صورة (أبي نواس) هذه وصورة (بشار) في الدلالات الإيحائية النفسية؛ فصورة (أبي نواس) تتجرد إلى بناء حسي واقعي لا يدع لحركة التصوير النفسية مسربا، تلك الحركة التي تشخصت عند (بشار) في لوحة (الليل تهاوى كواكبه)، ولكنها تهتم عوضا عن ذاك برسم المشهد رسما حسيا منطقيا يقابل (مثار النقع فوق سواد الجيش وأسلحته) مع (سحاب على ليل تطحطح وادلهم). وللمقارنة بين الصورة البصرية عند بشار، وعند أبي نواس، نورد هذين البيتين، لكل منهما، يقول بشار:

"كأن مثار النقع فوق رؤوسهم وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه"

ويقول أبو نواس في نفس الموضوع، مع اختلاف زاوية النظر في الصورة:

"كأن مثار النقع فوق سواده سحاب على ليل تطحطح وادلهم"

نشير ان اللفظ والمعنى من المسائل التي وقفت عليه المدرسة النقدية القديمة والحديثة، حيث نجد اختلاف مناحي الأدباء والنقاد حول هذه المسالة، اعني نظرية اللفظ والمعنى ومدى انسجام العلاقة بينهما، فمنهم من أولى اهتمامه باللفظ كالجاحظ مثلا كما أشار في كتاب **الحيوان**، ومنهم من أولى المعنى اهتمامه كابن قتيبة في كتاب **كتاب المعاني الكبير** ومنهم من وجد العلاقة الملتحمة بين المصطلحين كابن طباطبا في كتابه **عيار الشعر**.

ملاحق الكتاب أيضا تعتبر في غاية الأهمية لان القارئ يجد نفسه أمام معجم شعري للشعراء العميان، مما يسهّل للقارئ والباحث الاطلاع على تفاصيل دقيقة منوطة بالصورة الشعرية المتشابهة والمتباينة لدى الشعراء العميان.

لا اغفل قبل أن أختتم حديثي أن أشير إلى الملاحظات الهامشية في الكتاب التي تدل على مدى اطلاع المؤلف على مصادر قديمة وحديثة، فضلا عن الدراسات والكتب التي كتبت باللغات الأوروبية، كذلك البيليوغرافيا المثيرة لنظر الدارسين التي استخدمها في دراسته.

أمام القارئ إذن كتاب قيم وفي غاية الأهمية، ففيه الكثير من الفوائد التراثية، وفيه الجديد من الآراء بالمقارنة مع دراسات أخرى في هذا المضمار.

إن هذا الكتاب يعتبر إطلالة جديدة على دراسة الشعر القديم، من الجانب النفسي، السيكولوجي والتطبيقي.

غالب عنابسة